ما جاء بالقرآن ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إيمانه بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته الخاتمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

والكافر من هؤلاء إنما ينأى عن مطلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يريد أن يهتدى ، ويمعن فى طغيانه فينهى غيره عن الإيمان ، فكأنه ارتكب جريمتين : جريمة كفره ، وجريمة نهى غيره عن الإيمان .

لقد كانت قريش على ثقة من أن الذى يسمع القرآن يهتدى به ، لذلك أوصى بعضهم بعضاً ألا يسمعوا القرآن ، وإن سمعوه فعليهم أن يحرفوا فيه أو أن يصنعوا ضجيجاً يحول بين السامع للقرآن وتدبره .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

( سورة فصلت )

إنهم واثقون من أن القرآن يقهرهم بالحجة ويفحمهم بالبينات ، وأنهم لو استمعوا إليه لوجدوا فيه حلاوة وطلاوة تستل من قلوبهم الجحود والنكران . وكأنهم بذلك يشهدون أن للقرآن أثراً فى الفطرة الطبيعية للإنسان ، وهم أصحاب الملكة فى البلاغة العربية . ومع ذلك ظل الكافرون على عنادهم بالرغم من عشقهم للأسلوب والبيان والأداء . ولم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل أرادوا إضلال غيرهم ، فكأنهم يحملون بذلك أوزارهم وأوزار من يضلونهم ، ولم يؤثر ذلك على مجرى الدعوة ولا على البلاغ الإيمانى من محمد عليه الصلاة والسلام ؛ ذلك أن الحق ينصره على الرغم من كل هذا ؛ فهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا

لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾

( سورة الصافات )

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

( سورة الأنعام )

نعرف أن المقصود بذلك القول هم المعارضون لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عارضوها لأنها ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو ، وجبروت ، واستخدام للضعفاء . وذلك ما جعلهم يقفون من الدعوة موقف النكران لها والكفران بها .

وماداموا قد وقفوا من الدعوة هذا الموقف ، فلم يكن من حظهم الإيمان ، ولأنهم نأوا وبعدوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خسروا ، أما غيرهم فلم ينأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل إنه أوى إلى الله فآواه الله .

إنّ هؤلاء الجاحدين المنكرين لدعوة رسول الله وقفوا أمام دعوته وصدوا الناس عنها ونهوهم عن اتباعها ؛ لأن هذه الدعوة ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو وجبروت واستخدام الضعفاء وتسخيرهم فى خدمتهم وبسط سلطانهم عليهم . هذا - أولا - هو الذى دفعهم إلى منع غيرهم ونهيهم عن اتباع الإسلام ، ثم هم - ثانيا - ينأون ويبتعدون عن اتباع الرسول ، - إذن - فمن مصلحتهم - أولا - أن ينهوا غيرهم قبل أن ينأوا هم ؛ لأنه لو آمن الناس برسول الله وبقوا هم وحدهم على الكفر أيستفيدون من هذه العملية ؟ لا يستفيدون - إذن - فحرصهم - أولا - كان على ألا يؤمن أحد برسول الله لتبقى لهم سلطتهم .

وجاء الأداء القرآنى معبراً عن أدق تفاصيل هذه الحالة فقال : « وهم ينهون عنه وينأوْن عنه » فالبداية كانت نهى الآخرين عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك ابتعادهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار حظهم أن يظلوا على كفرهم فكان الخسران من نصيبهم ، بينما آمن غيرهم من الناس .

وهكذا نرى أنّ الأداء القرآنى جاء معبرًا دائماً عن الحالة النفسية أصدق تعبير ،

فقول الحق : « وهم ينهون عنه » قول منطقى يعبر عن موقف المعارضين لرسول الله أما قوله الحق : « وينأون عنه » فهذا تصوير لما فعلوه فى أنفسهم بعد أن منعوا غيرهم من اتباع الدعوة المحمدية والرسالة الخاتمة . فهم بذلك ارتكبوا ذنبين : الأول : إضلال الغير ، والثانى : ضلال نفوسهم . وبذلك ينطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾

( من الآية ٢٥ سورة النحل )

ولا يقولن أحد : إن هذه الآية تناقض قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

( من الآية ١٥ سورة الإسراء )

ذلك لأن الوزرين : وزرهم ، ووزر إضلالهم لغيرهم من فعلهم .

ويتابع الحق : « وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » ونرى أن الذى يقف أمام دعوة الحق والخير لينكرها ويبطلها ويعارضها ويحاربها إنما يقصد من ذلك خير نفسه وكسب الدنيا وأخذها لجانبه ، ولكنهم أيضاً لن يصلوا إلى ذلك ، لماذا ؟

لأن الله غالب على أمره :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

( سورة الصافات )

والحق سبحانه وتعالى لا يهزم جندَه أبداً ، ولا بد أن يهلك أعداء دعوته بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله فهم فى الحقيقة هم الذين يهلكون أنفسهم بأنفسهم . وسيظل أمر الدعوة الإيمانية الإسلامية فى صعود . وسيرون أرض الكفر تنتقص من حولهم يوماً بعد يوم . ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾

( من الآية ٤١ سورة الرعد )

أى أن أرض الكفر تنقص وتنقص والله يحكم لا معقب لحكمه ، ولذلك يشرح القرآن فى آخر ترتيبه النزولى هذه القضية شرحاً وافياً . ويعلمنا أن نقطع كل علاقة لنا مع الكافرين ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ (١) لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٥) ﴾

(سورة الكافرون)

وهكذا نرى أن قطع العلاقات أمر مطلوب بين فريقين: فريق يرى أنه على حق، وفريق ثانٍ أنه على باطلٍ ، وقد يكون قطع العلاقات أمراً موقوتاً . وقد تضغط الظروف والأحداث إلى أن نعيد العلاقات الدنيوية ثانية ، ولكن قطع العلاقات لابد أن يكون مؤبداً فى شأن العقيدة ولا مداهنة فى هذا ، ولذلك قالها الحق مرتين :

﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٥) ﴾

(سورة الكافرون)

فالمؤمن يرى الحاضر والمستقبل ، ويعلم استحالة أن يعبد ما يعبده الكافرون ، واستحالة أن يعبد الكافرون ما يعبد .

وقد يقول قائل : إن القرآن فى ترتيبه النزولى لا بد ألا يتعارض مع واقعه ، ولكننا نرى فى قوله تعالى : ( لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ) وكررها مرتين ، إنه بذلك يكون قد أغلق الباب أمام الكافرين فلا يؤمنون مع أن بعضهم قد دخل فى دين الله . نقول : نعم إنه لا يتعارض ؛ لأن الحق لم يغلق الباب أمام الكافرين الذين أراد الله أن يؤمنوا ؛ بدليل أنه قال جل وعلا :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا (٣) ﴾

(سورة النصر)

إذن فالمسألة لن تهمد عند ذلك ؛ فمعسكر الإيمان سيتوسع ، وسيواجه معسكر الكافرين وسيدخل الناس فى دين الله أفواجاً . ولكن هناك من قضى الله عليهم ألا يؤمنوا ليظلوا على كفرهم ويدخلوا النار ، فقال سبحانه من بعد ذلك :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾

( سورة المسد )

إذن فأبو لهب ومن على شاكلته سيدخل النار ولن يدخل فى دين الله أبداً.

ويجىء قول الحق :

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) ﴾

( سورة النصر )

هذا القول يفتح باب الأمل ، ونرى دخول عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل إلى الإسلام . ومجىء سورة المسد من بعد سورة النصر فى الترتيب المصحفى كما أراد الله ، يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة لأنهم مثل أبى لهب وزوجه .

وتأتى من بعدها سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾

( سورة الإخلاص )

إنه لا إله مع الله ينقض ما حكم به الله ، ولن يعقب أحد على حكم الله . إذن فمن كفر وأشرك بالله يكون من الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها وما يشعرون .

ومن بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

عندما ننظر إلى قول الحق : « ولو ترى إذ وُقفوا على النار » ، هنا لا نجد جواباً، مثل ما تجده في قولك : لو رأيت فلاناً لرحبت به أو لو رأيت فلاناً لعاقبته . إن في كلٌ من هاتين الجملتين جواباً ، لكن في هذا القول الكريم لا نجد جواباً ، وهذا من عظمة الأداء القرآني ؛ فهناك أحداث لا تقوى العبارات على أدائها ، ولذلك يحذفها الحق سبحانه وتعالى ليذهب كل سامع في المعنى مذاهبه التي يراها .

وفي حياتنا نجد مجرماً في بلد من البلاد يستشري فساده وإجرامه في سكانها تقتيلاً وتعذيباً وسرقة واعتداءات ، ولا أحد يقدر عليه أبداً ، ثم يمكن الله لرجال الأمن أن يقبضوا عليه ، فنرى هذا القاتل المفسد يتحول من بعد الجبروت إلى جبان رعديد يكاد يقبل يد الشرطي حتى لا يضع القيود في يديه . ويرى إنسان ذلك المشهد فيصفه للآخرين قائلاً : آه لو رأيتم لحظة قبضت الشرطة على هذا المجرم ، وهذه العبارة تؤدي كل معاني الذلة التي يتخيلها السامع ، إذن فحذف الجواب دائماً ترييب لفائدة الجواب ، ليذهب كل سامع في تصور الذلة إلى ما يذهب . لأن المشاهد لو شاء لحكى ما حدث بالتفصيل لحظة القبض على المجرم وبذلك يكون قد حدد الذلة والمهانة في إطار ما رأى هو ، ويحجب بذلك تخيّل وتصوّر السامعين .

أما اكتفاء المشاهد بقوله : آه لو رأيتم لحظة قبض الشرطي على هذا المجرم .. فهذا القول يعمم ما يُرى حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور . وهكذا أراد القرآن أن يصور هول الوقوف على النار فأطلق الحق « لو » بلا جواب حين قال :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وقد أراد البعض أن يتصيد لأساليب القرآن ، ومنهم من قال : كيف تقولون إن القرآن عالى البيان ، فصيح الأسلوب ، معجزة الأداء ، وهو يقول ما يقول عن شجرة الزقوم ؟

إن القرآن الكريم يقول عن هذه الشجرة :

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ (سورة الصافات)

إن كل شجرة تحتاج إلى ماء وهواء ، وفيها حياة تظهر باخضرار الأوراق ، فكيف تخرج هذه الشجرة من النار ، أليس فى ذلك شذوذ ؟ ثم تتمادى الصورة .. صورة الشجرة ، فيصف الحق ثمارها بقوله الحق :

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ﴾ (سورة الصافات)

نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نر رأس الشيطان . ويَسْخَرُ الذين يتصيدون للقرآن فى أقوالهم : بما أن أحداً من البشر لم يشهد رأس الشيطان ، وكذلك شجرة الزقوم ، فكيف يشبه الله المجهول بمجهول ؟ وتساءلوا بطنطنة : ماذا يستفيد السامع من تشبيه مجهول بمجهول ؟ ونقول رداً عليهم : إن غباء قلوبكم وفقدان طبعكم لملكة اللغة العربية هو الذى يجعلكم لا تفهمون ما فى هذا القول من بلاغة .

وحين نقرب المثل نقول : هب أن إنساناً أقام مسابقة بين رسامى « الكاريكاتير » فى العالم ليرسم كل منهم صورة للشيطان ، ويوم تحديد الفائز ستوجد أكثر من صورة للشيطان ، وستفوز أكثر الصور بشاعة ، ذلك أن الفوز هنا ليس فى الجمال ، ولكن الفوز هنا فى مهارة تصوير القبح . وهكذا تتعدد أمامنا صور القبح ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وقد أراد إطلاق الخيال لتصور شجرة الزقوم ، وكذلك تصور رأس الشيطان ؟ أراد الحق بهذا الأسلوب البليغ إشاعة الفائدة من إظهار بشاعة صورة الشجرة التى يأكل منها أهل الكفر .

وكذلك هنا قوله الحق : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » والذى يحدث لهؤلاء

الوقوف على النار لا يأتى خبره هنا ، بل يكتفى الحق بأن يعبر لنا عن أننا نراهم فى مثل هذا الموقف ؛ لأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء ؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار . والجنة ـ كما نعلم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ونعلم أن رؤية العين محدودة ، ورقعة السمع أكثر اتساعاً ، ذلك أن الأذن تسمع ما تراه أنت وما رآه غيرك ، لكن عينيك لا تريان إلا ما رأيته أنت بمفردك ، ولا يكتفى الحق بذلك بل يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أن فى الجنة ما لا يخطر على قلب بشر ، أى أن فى الجنة أشياء لا تستطيع اللغة أن تعبر عنها ؛ لأن اللغة تعبر عن متصورات الناس فى الأشياء . والمعنى يوجد أولاً ثم يوجد اللفظ المعبر عنه .

وهكذا نعلم أن ما فى الجنة من نعيم لا توجد ألفاظ تؤدى كل ما تحمله للمؤمن من معان ، وكذلك نعلم أيضاً أن فى النار عذاباً لم توضع له ألفاظ لتعبر عنه . ولو أن الحق سبحانه وتعالى قال : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » لرأينا أمراً مفزعاً مخيفاً مذلاً إلى آخر تلك الألفاظ الدالة على عمق العذاب لما أعطى ذلك الأثر نفسه الذى جاء به حذف الجواب .

وعندما نقرأ « وُقِفوا » نعرف أن فيه بناء وكيانا موجودًا ، وأن هناك من أوقفهم على النار ، وهم كانوا مكذبين فى الدنيا بالنار ، ثم وجدوا أنفسهم يوم القيامة ضمن من وقّفهم الله على النار ليروا العذاب الذى ينتظرهم ، ويطلعوا على النار اطلاع الواقف على الشيء ، كذلك يوقفهم الحق على النار التى أنكروها فى الدنيا ؛ فقد جاءهم الخبر فى الدنيا ، فمن صدق وعلم أن من أخبره صادق ، فذلك علم يقين ، وإن تجاوز الإنسان مرحلة العلم ورأى صورة محسة للخبر ، فهذا عين يقين . والمؤمن بإخبار ربه وصل إلى الأشياء بعلم اليقين من الله ، لأنه يصدق ربه ، ولذلك فالإمام على ـ كرم الله وجهه ـ يقول : « لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقيناً » ؛ لأنه مصدق بلاغى به .

لكن ماذا عن المكذبين ؟ إن الإنسان يرى علم اليقين فى اليوم الآخر وهو عين يقين ، ويشترك فى ذلك المؤمن والكافر . ولكن الكافر يرى النار عين اليقين ويدخلها ليحترق بها فيحس بها وهذا هو « حق اليقين » .

هكذا نعلم أن النار « عين اليقين » يراها المؤمن والكافر ، والنار كـ « حق اليقين » يعاينها ويعذب بها الكافر فقط ، أما المؤمن فى الجنة فيحس « حق اليقين » لأنه يعيش ويسعد بنعيمها . ويصور سبحانه ذلك فى قوله :

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾

( سورة التكاثر )

وجاء حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

( سورة الواقعة )

وماذا يصنعون وهم المكذبون عندما يرون النار عين اليقين ؟ لا بد أنهم يخافون أن يعانوا منها عندما تصبح حق اليقين ، لذلك يقولون :

﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

( من الآية ٢٧ سورة الأنعام )

إنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليستأنفوا الإيمان . والتمنى فى بعض صوره هو طلب المستحيل غير الممكن للإشعار بأن طالبه يحب أن يكون ، كقول القائل :

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

أو قول القائل :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

وهم قالوا : « يا ليتنا نرد » فإن كانوا قالوا هذا تمنياً فهو طلب مستحيل ويتضمن أيضاً وعداً بعدم التكذيب بآيات الله ، فهل هم قادرون على ذلك ؟

لا ؛ لأن القرآن الكريم قد قال فى الآية التالية :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

إنهم يطلبون العودة إلى الدنيا لا لينفذوا الوعد فى طلبهم المستحيل ؛ لأنهم سيفعلون مثلما فعلوا من قبل ، كفراً ونكراناً وجحوداً . إنهم لجأوا إلى هذا القول من فرط الخوف مما أعده الله لهم . بعد أن ظهر لهم كل ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من كفر وجحود . ويقال عن يوم القيامة « يوم الفاضحة » ؛ لأن كل إنسان سيجد كتابه فى عنقه ، ويقال له :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

( سورة الإسراء )

فإذا كنا فى الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق لنا ؟ ويرى الإنسان مكرَه يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل فعله سيراه بطريقة لا يمكن معها أن ينكره ، وكأن الحق يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل سأترك لك أن تحاسب نفسك . ويفاجأ الإنسان أن جوارحه تنطق لتشهد عليه : الأيدى تنطق بما فعل ، واللسان ينطق بما قال ، والقدم تحكى إلى أين ذهب بها صاحبها ، فهذه الجوارح التى كانت تنفعل لمراد صاحبها فى الدنيا ، يختلف موقفها فى الآخرة ولا تنفذ فى اليوم الآخر مراد الإنسان بل مراد من أعطى الإنسان المراد .

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ ( من الآية ١٦ سورة غافر )

مثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد السرية أو الكتيبة المقاتلة لها قائد يحكم

الجنود ، فإن أعطاهم أوامر خاطئة فهم ينفذونها ، وبعد انتهاء المعركة يسألهم القائد الأعلى ، فيقولون سلسلة الأوامر الخاطئة التي أصدرها قائدهم المباشر .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن أبعاضك مؤتمرة بقدرتك عليها دائما ، إن سيطرتك عليها أمر منحك الله إياه ، ويسلبه منك متى شاء فى الدنيا . ويأتى يوم القيامة لتنتهى سيطرتك على الأبعاض . وأنت ترى فى الدنيا بعضاً من صور سلب السيطرة على الأبعاض لتتذكر قدرة الواهب الأعلى ؛ فأنت ترى من لا يرى ، وترى من فقد السيطرة على جارحة أو أكثر من جوارحه ، وذلك تنبيه من الله على أن سيطرة الإنسان على الجوارح إنما هى أمر موهوب من الله . وقول الحق سبحانه عن الكافرين : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل » يفضح تدليسهم فى الحياة الدنيا ، ثم يجيب الله على تمنيهم السابق الملىء بالذلة والمسكنة ، التمنى بالعودة إلى الدنيا ، فيقول سبحانه : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

فهم كاذبون فى الوعد بأن يؤمنوا لو عادوا إلى الدنيا ، يوضح ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

إنهم لم يأخذوا فى أثناء حياتهم الإيمان كإيمان استدلال بكوْن منظم مرتب محكم التكوين ، إنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا النظام والإحكام والترتيب موجود فى علاقات البشر بعضهم ببعض سواء أكانوا مؤمنين أم ملاحدة ، ونعلم أن هناك صفات يشترك فى كراهتها كل الناس مؤمنهم وملحدهم ؛ فالملحد إن سرق من زميله ، ألا يعاقب ؟ إنه يتلقى العقاب من مجتمعه . وفى كل المجتمعات هناك ثواب وعقاب ، بل هناك جزاء بإحسان . والإيمان لا يمنع أن يصطلح الناس على شىء من الإحسان ، والمحرومون من الإيمان تلجئهم الأحداث أن يضعوا القانون لينظموا الثواب والعقاب .

إننا نجد أن تجريم المخالف للخير والجمال وإصلاح الكون هو أمر فطرى

وضروری للإنسان ؛ فهم يجرمون أفعال السوء بعد أن تعضهم الأحداث ولا يلتفتون إلى أن المنهج السماوى جاء بالثواب والعقاب على كل فعل يحمى كرامة الإنسان . ويوم القيامة يقفون فى صَغار وفى اضطرار ليروا ما فعلوا :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

( سورة الأنعام )

فهم لو رُدُّوا إلى الدنيا بما كان لهم فيها من اختيار فسيفعلون مثلما فعلوا ، ولم يقولوا مثل هذا القول فى اليوم الآخر إلا لأنهم مقهورون . وكانوا من قبل يقولون :

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

( سورة الأنعام )

ففى دنياهم كانوا لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هى الدنيا . ولم يلتفتوا إلى أن الإنسان يحيا فى الدنيا على قدر قوته ، وويل للضعيف من القوى . والقوى إنما يخاف من قانون يعاقبه ، أو يخاف من إله سيعاقبه على الذنب مهما أخفاه ، ولذلك نجد القاضى المؤمن يقول دائماً : لئن عمِّيتم على قضاء الأرض ، فلا تعمّوا على قضاء السماء .

ومن غباء أهل الكفر أنهم يسمون الحياة على الأرض « الحياة الدنيا » وهى فى حقيقتها دنيا ، وماداموا قد حكموا وعرفوا أنها « دنيا » فلا بد أن يقابلها حياة عليا . إنّ كل ذلك يحدث لهم عندما يقفون على النار ، والنار جند من جنود الجبار ، فما بالك بهم حين يقفون أمام خالق النار ورب العالمين ؟

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هم - إذن - قد خافوا وارتبكوا وطلبوا العودة للحياة الدنيا ؛ لأن ما شاهدوه هول كبير ، فما بالك إذا وقفوا على الله ؟ إنه موقف مرعب . وإذا كان الحق قد حذف من قبل الجواب عندما أوقفهم على النار ؛ فالأولى هنا أن يحذف الجواب ، حتى يترك للخيال أن يذهب مذاهب شتى .. إنه ارتقاء فى الهول .

وهكذا نرى التبكيت لهم فى قول الحق لهم : « أليس هذا بالحق » ؟ إنهم يفاجأون بوجود إله يقول لهم بعد أن يشهدوا البعث ويقفوا على النار : « أليس هذا بالحق » ؟ وسبحانه وتعالى لا يستفهم منهم ولكنه يقرر ، وقد شاء أن يكون الإقرار منهم ، فيقولون : « بلى » لأن الأمر لا يحتاج - إذن - إلى مكابرة . و« بلى » حرف يجعل النفى إثباتا .

ويطرح الحق هذه المسألة بالنفى حتى لا يظن ظان أن هناك تلقيناً للجواب . ويصدر حكم الحق : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهكذا يذوقون العذاب الذى كانوا به يكذبون . وذوق العذاب ليس من صفة القهر والجبروت ؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ولكن بسبب أنهم قدموا ما يوجب أن يعذبوا عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

إن كل رأس مال يحتاج إلى عمل يزيده ، لكن أن يكون العمل قد أضاع المال ، فهذا يعنى الخسارة مرتين : مرة لأن رأس المال لم يبق عند حده بل إنه قد فنى وذهب وضاع ، وثانية لأن هناك جهداً من الإنسان قد ضاع وأضاع معه رأس المال .